الفصل السابع

الشرق ومشكلات التربية

الشرق ومشكلات التربية

١٠.

قبل أن نستطيع الإجابة عما إذا كان هناك تمييز مطلق بين الشرق والغرب من حيث مفهوم الإنسان أو فلسفة التربية عندهما ، علينا أن نحاول فهم ما نعنيه بالشرق والغرب ، وأن التمييز جغرافى ، كما هو واضح ، لكن حتى من وجهة النظر الجغرافية ، لابد أن تكون دلالة كلمتى الشرق والغرب نسبية فى العالم ، فكل منطقة من مناطق العالم يمكن اعتبارها شرقًا وغربًا فى آن ، بالنسبة لهذا الموقع أو ذاك ، فوصف آسيا بأنها شرق ، وأوروبا بأنها غرب ، يرجع إلى أيام كان الناس يحسبون الأرض منبسطة محدودة ، ومن بقايا هذه العادة فى التفكير ذلك الوصف الشائع للفلسفات التى نشأت فى آسيا بأنها شرقية ، والفلسفات التى نشأت فى أوروبا بأنها غربية .

واستخدام صيغة الجمع حين نشير إلى الفلسفات التى نشأت فى آسيا ، هو اعتراف بالتعدد الواسع المدى لمثل هذه المذاهب الفكرية . فالنظريات الفلسفية التى نشأت فى الصين كانت فى الغالب تختلف عن تلك التى نشأت فى الهند أو غرب آسيا . وكل إقليم قد أنشأ مذاهب تفرعت إلى فروع متباينات وأخرى متوازيات . وفضلاً عن اختلاف الفلسفات فى منطقة بالغة الاتساع مثل آسيا ستجد أن المذاهب الفلسفية الهندية تشتمل على الإيمان بأن مذهب البراهمة هو الحق الذى لا حقيقة لسواه ، كما أنه توجد مذاهب أخرى لا تعترف إلا بحقيقة واحدة هى

التجربة الحسية ، ومذهب «السنكارا» Samkara و «الكارفاكا» Carvaka لكل منهما مكان فى أى دراسة تاريخية للفلسفة الهندية ، وإن كانت هذه الحقيقة تنسى أحيانًا .

ولأسباب شتى لا حاجة بنا إلى ذكرها ، أخذ كثير من الأساتذة يعتبرون أن «الفدانتا» Vedanta هى المذهب الذى تتمثل فيه خصائص الفلسفة الهندية ، وأن تفسيرها المقترن باسم «سنكارا» هو التفسير الوحيد السليم لها ، لهذا أخذ كثير من الأساتذة ـ هنود وأجانب ـ ينظرون إلى آراء «سنكارا» Samkara على أنها الفلسفة الهندية فى أسمى صورها .

وفى نفس الوقت فإن «سنكارا» نفسه لم يفهم دائمًا حق الفهم ، وحتى فى يومنا هذا ، لم يتفق النقاد بشأن ما كان يعنيه «سنكارا» بمفهوم «السحر» Maya هل السحر خداع أو هو سر من الأسرار ؟ ثم ماذا كانت علاقة «سنكارا» بالميتافيزيقيا البوذية ، ألم ينكر مع البوذيين الحقيقة المتسامية للحياة كما نعرفها نحن ؟ إن الكثيرين الآن ينظرون إلى «سنكارا» على أنه ناقد من ثقات النقاد للفلسفة البوذية ، لكنه فى زمانه كان يعتبر غالبًا بوذيًا متنكرًا متخفيًا .

وحتى لو قبلنا الفكرة التقليدية الشائعة عن فلسفة «سنكارا» ، فإننا نجد أن هناك مذاهب هندية سلفية أخرى ، تعترف أكثر مما تفعل هذه الفلسفة بحقيقة الفرد وأعماله ، وفضلاً عن المدارس الفلسفية الست ، توجد مدارس مرقت عن تلك المدارس على اختلاف فى عمق البصر وشدة التأثير وتلك المدارس ـ سواء أكانت سلفية أم مارقة ـ تكاد تعرض فيما بينها كل ما يمكن أن يحدث من تغاير فى الفكر البشرى . ولا يقتصر الأمر على هذا ، فإن مسافة الخلف بينهما تكون فى بعض الأحوال أكثر اتساعًا مما يكون بين فلسفة هندية خالصة وفلسفة أوروبية

خالصة .

وهذا يصدق على مفهوم الإنسان عند شتى الفلاسفة الذين عاشوا فيما نسميه الغرب ، وحتى فى نطاق الميدان المحدود نسبيًا للفلسفة اليونانية ، كان هناك تباين تام وبين موقفى «هرقليتس» Heraclituse و«بارمينيدس» Parmenides من الحقيقة والإنسان ، والفكر الإنسانى فى أوروبا ـ وفى سواها ـ يتكشف عن موقفين أساسيين ، ولكنهما متناقضان، فلقد أصر بعض المفكرين على فكرة الدوام ، ونظروا إلى ما يطرأ من أشياء جديدة على أنه مجرد عملية تشويه للحقيقة المكنونة . وآخرون اعتبروا التغيير شيئًا أساسيًا ، بل اعتبروه هو الحقيقة ذاتها .

وكذلك اختلف الفلاسفة بشأن خطر كل من الحس والفهم فى بناء معرفتنا ، فيرى البعض أن ماهية الإنسان هى عقليته ، وآخرون يقولون أن الإنسان هو مجرى تيار المدركات الحسية ، وكان من الطبيعى أن يختلف مفهوم الإنسان عند أولئك وهؤلاء ، على أن هذه الفروق لا تقف عند الحدود الجغرافية ، بل تتجاوزها ولا تأبه لها ، ونجد شراحًا لكل من المدرستين فى كل من آسيا وأوروبا . وكما أنه لا يوجد مفهوم واحد للإنسان يمكن اعتباره ذا طابع آسيوى بحت ، فإنه لا يوجد مفهوم آخر يمكن اعتباره ذا طابع أوروبى بحت .

صحيح أن الإغريق قد قسموا البشر إلى هيلينيين ، وبرابرة ، وكذلك قسم الهنود البشر إلى آريين ، وملكاس ، أى هندوكيين ، وغير هندوكيين . وقسم العبرانيون البشر إلى يهود ، وغير يهود . والجنس الذى يزكى نفسه على هذا النحو يكون لديه إحساس بالتفوق يمازجه شعور بالازدراء والرثاء للآخرين ، لكن من المشكوك فيه أن العالم القديم قد ميز تمييزًا صريحًا بين الفلسفة فى الشرق والغرب ، فهذا التمييز لم

ينشأ إلا بعد مرور قرون عدة ، وهو إلى حد كبير راجع إلى التفوق العسكرى الذى بلغته الأمم الأوروبية بعد عصر النهضة بفضل تطبيق العلم على فنون الحرب .

وأدى التفوق العسكرى إلى السيطرة الأوروبية ، وبخاصة فيما يتعلق بدول غرب أوروبا ، وشجع على إصابة الغرب بمركب العظمة الذى استحال إلى خيلاء فارغة ، إن الإغريق برغم إحساسهم بقيمتهم ، قد اعترفوا بتفوق المصريين وبعض أمم الشرق الأخرى فى بعض الميادين ، وكذلك اعترف الهندكيون بفضل الإغريق فى ميادين النحت والعلوم العسكرية والفلك ، وكان الأوروبيون حتى عصر النهضة يعترفون بتفوق العرب فى شتى الفنون والعلوم ، على أن الأوروبيين الغربيين فى عصر ما بعد النهضة قد نشأ عندهم الميل الصريح أو المفترض لأن يعتبروا أنهم ـ دون سواهم ـ أصحاب الفضل فى كل تفوق أدركه البشر .

أن أوروبا وإفريقيا وآسيا ـ وهى العالم المعروف عند القدامى ـ يؤثر بعضها فى بعض منذ بدء التاريخ ، والذى يوصف الآن بأنه غرب ، إنما يعتمد فى أساسه على مزيج من عناصر إغريقية وعبرانية . بينما الشرق يشمل آثارًا من الفن الهيلينى والعلم الحديث ، وإذا أمكن بأى حال إيجاد حد فاصل بين الشرق والغرب ، فربما لا نخطئ إذا قلنا : إن التراث الروحى للغرب كان الفضل فيه للشرق إلى حد كبير ، بينما المضمون الثقافى للشرق مستقى إلى حد ما من مصادر غربية . إن المسيحية التى أثرت فى أوروبا أعمق الأثر قد نبتت فى آسيا ، لكنها عادت إلى الآسيويين فى زى أوروبى . والرأى السليم الوحيد إذن أنه لا يمكن وصف أى مفهوم للإنسان بأنه شرقى بحت أو غربى بحت ، وبعبارة أخرى إن عالم الفلسفة لا يمكن تقسيمه إلى كتل ثقافية لا ينفذ منها الماء .

●● ●● ●●

٢.

ولقد يتساءل المرء أنه لو صح هذا ، فماذا دعا الناس إلى التفكير فى الشرق والغرب على أنهما شيئان متميزان ، إن لم يكونا متباينين كل التباين ؟ وأحد الأجوبة على هذا السؤال ، أن الفكر البشرى يتأثر إلى حد كبير بالبيئة التى يجد فيها الإنسان نفسه ، وهذا يختلف باختلاف أقاليم العالم . ذلك أن الإنسان لايفكر فى فراغ . فمضمون تفكيره يجب أن يستمد من خبرته ، أو أن خبرته تتشكل إلى حد كبير ببيئته الطبيعية والإنسانية .

ولنأخذ مثلاً واحدًا : الصحراء بسمائها الغارقة فى التفكير ، والأرض المنبسطة إلى غير حد ، إن هذا يميل إلى محو كل الفوارق ويوحى إلى العقل بوحدة الوجود ، ومن هذا الإحساس بالوجود لا تبقى إلا خطوة ، ثم يأتى الاعتقاد بإله واحد وقانون واحد ، وهذا يعين على تفسير وجود أقوى الدعوات إلى التوحيد فى الأديان السامية .

وصور الإنتاج ، وعلاقة شتى الطبقات بالقوى الإنتاجية ، هى أيضًا مما يؤثر فى الفكر السائد فى المجتمع ، وإن كانت العلاقة بينهما ليست واضحة دائمًا ، وكلما طال أمد بقاء أية صورة اجتماعية خاصة ، قوى تأثيرها على المواقف العقلية للشعب ، وتدل التجارب على أن ذوى الحرفة الواحدة تتشابه عقولهم . فالمجتمعات الزراعية فى كل أنحاء العالم تميل إلى أن تكون قبلية محلية النظرة ، والوحدة فيها هى المجتمع القروى

فى هذا المحيط الاجتماعى لا تكون للفرد حياة مستقلة ، ومن جهة أخرى ، يقتصر التعاون الاجتماعى على أفراد مجتمع القرية ، وقلما يفكر الفرد على الإطلاق فى علاقته ببلاده أو أمته ، وإنما يتجه ولاؤه إلى أسرته أو قبيلته أكثر مما يتجه إلى أمته أو وطنه الأكبر ، والهند بما سادها من اقتصاد زراعى نحو ٤٠٠٠ سنة أو تزيد ، تقدم لنا المثل العلمى على هذا ، فصورة حياتها الاقتصادية ، وتركيز عيناتها على مجتمع القرية ، قد عملا ضد نمو الفردية والقومية على السواء .

ولنأخذ مثلاً آخر يوضح الطريقة التى يؤثر بها التنظيم الاقتصادى فى النظرة إلى الحياة : إن الفلاح ـ وبخاصة قبل الاكتشافات العلمية والتكنولوجية ـ كان يعتمد فى رخائه على عوامل لا سيطرة له عليها . لم يكن يستطيع منع الجدب ولا السيل ، لهذا فإن اقتصاد المزارع اتخذ طابع التواكل والاستسلام للمقادير ، وعلى النقيض من ذلك ، المجتمعات التى اشتغلت بالتجارة أو الصناعة ، فقد بثت فى الفرد روحًا أكثر اعتمادًا على النفس ، وأكثر ميلاً إلى التجريب والمغامرة .

ونحن نرى هذه الفروق بين المجتمعات الزراعية والتجارية فى كل من آسيا وأوروبا . وأوروبا فى القرون الوسطى كانت زراعية فى معظمها ، وكانت فى روحها أقرب إلى المجتمعات الزراعية المعاصرة فى آسيا نفسها، منها إلى أوروبا الصناعية حاليًا ، وهنا نجد إشارة أخرى إلى أن الاختلاف فى النظرة بين الشعوب لا يرجع إلى الموقع الجغرافى ، بقدر ما يرجع إلى مرحلة التطور الاجتماعى والاقتصادى .

ويمكن أن تتتبع تأثير البناء الاجتماعى فى بعض جهود الإنسان التأملية البالغة العمق . يقال أحيانًا : إن ما يميز المفهوم الهندى للإنسان

هو الإيمان بعقائد «كارما» والتناسخ ، وهما ليسا عقيدتين ، إنما هما صيغتان لمبدأ أساسى واحد ، هذا المبدأ هو تطبيق قانون العلّية على مصير الإنسان ، ويقول بأن ما يحدث للإنسان ليس شيئًا عرضيًا ولا يخضع لأى عامل غير بشرى ، فكل امرئ مسؤول عن مصيره ، وما زرعه الإنسان فى الماضى هو ما حصده حتى الآن ، وما سيحصده فى المستقبل. ونتائج أعماله لا تستنفد فى حياته ، ولذلك فلابد من أن يولد مرارًا وتكرارًا ، لهذا كانت عقيدة «الكارما» وتناسخ الأرواح محاولة لتأكيد استقلال الإنسان عن الإله ، أو أية قوة أخرى فوق مستوى الإنسان.

●● ●● ●●

وقد نجد ما يقابل هذا فى مكان آخر ، فبعض العناصر فى فلسفة سقراط تشبه ذلك شبهًا قريبًا ، لكن العقيدة كما صيغت فى شكلها الكامل تختص بها الهند ، وقد يكون من أسباب ازدهارها هنا ما يكمن فى تنظيم المجتمع الهندى فى أعقاب توافد الآريين ، لقد أقبل الآريون على الهند يتقاطرون ، وواجهوا شعبًا أو شعوبًا أضعف منهم عسكريًا ، ولكنهم أندادهم فى جوانب أخرى . فغزاهم الآريون وأخضعوهم ، لكنهم سمحوا لهم بالعيش كطبقات أدنى منهم فى الوضع الاجتماعى ، ونشأ المذهب من ذلك التقسيم الاجتماعى الطبقى .

وأعطى التمييز صفة الدوام ، بأن وجد دعامة فى النظام القائم ، ولنا أن ننعى على التمييز ما شئنا من وجهة النظر الإنسانية ، لكن من الناحية التاريخية يجب أن نعترف بأنه منح المهزومين فرصة للبقاء ، وإن كان البقاء فى ظروف الحرمان والعجز ، ذلك أن بقاء المهزومين فى ظروف من

الإذلال والشقاء ، قد أدى إلى خلق مشكلات اجتماعية عويصة .

فالمجتمع الطبقى يميل دائمًا إلى تركيز الامتيازات فى القمة ، وإنكار الحقوق على المهزومين يؤدى مع مرور الوقت إلى إنكار الامتيازات على غير المحظوظين من المنتصرين ، مثل تلك المجتمعات إذن لابد لها دائمًا من أن تواجه تمرد غير أصحاب الامتيازات الذين يكوِّنون الأغلبية ، وهذه الأخطار تصغر إذا أقنعت الأغلبية :

١ ـ بأنهم أنفسهم هم المسؤولون عن شقوتهم وبؤسهم .

٢ ـ بأن لهم أن يأملوا فى تحسين وضعهم فى حياة آخرى إذا استسلموا فى صبر لشقوتهم الحاضرة .

فجاءت عقيدة «الكارما» ملائمة لهذين الأمرين ، فهى تثبت فى عقول الغالبية الاعتقاد بأن شقاءهم يرجع إلى خطايا قورفت فى حياة سابقة ، وتمنحهم الأمل فى إحراز تحسن فى المستقبل عن طريق حسن آداء ما يناط بهم حاليًا من أعمال .

وليس من الضرورى أن تقام العقيدة عمدًا لتبرير الظروف الاجتماعية القائمة ، بل إن الأمر فى غالب الظن لا يجرى على هذا الأساس ، لكن لاشك فى أنها تلاءمت فى مطالب الطبقة المسيطرة فى المجتمع ، ومثل تلك الطبقة بطبيعة وضعها ، تميل إلى أن تكون أكثر فطنة وإيجابية، لهذا فإن معتقداتها تميل إلى أن تسود جو المجتمع كله ، لهذا فلا عجب فى أن المبادئ المقبولة من الطبقة الممتازه تحدد مع مضى الزمن نظرة المجتمع من حيث «هو كل» .

واستخدام البارود فى الحرب مثل بارز ، يبين كيف يؤثر اكتشاف

علمى فى مجرى التطور الاجتماعى ، فقد كان من أسس الإقطاع الأوروبى تفوق الفرسان العسكرى بفضل دروعهم . فالفارس كان إلى حد كبير آمنًا من هجوم الجنود المشاة العاديين حتى حطم البارود هذا الأمان .

وهكذا ساعد البارود على القضاء على النظام الإقطاعى بصفة مباشرة، كما ساعد بصفة غير مباشرة على نمو روح الديمقراطية عن طريق إيجاد مساواة فى التعرض للأخطار بين المحاربين ، أى انهيار النظم الإقطاعية إلى إيجاد الظروف الملائمة لظهور أفكار جديدة أكثر مناسبة للطراز الاجتماعى الجديد .

●● ●● ●●

والنتيجة إذن أن الاختلاف فى مفهوم الإنسان فى مختلف الأقطار أو الأزمان ليس اختلافًا أساسيًا حيويًا ، واعتبار تلك الاختلافات حيوية أو غير ممكنة التغيير أمر لا يمكن تفسيره إلا بميل الإنسان ، لأن يوحد بين الشىء وبين اسمه ، والفلسفة الاسمية لم تعد الطريقة الفكرية المحبوبة ، لكن أثرها لا يزال يعمل علمه بطرق عجيبة ، وبدون الأسماء لا يستطيع الإنسان أن يستخدم المفاهيم ، وبدون المفاهيم لا يستطيع تنظيم أحاسيسه والطاقة البشرية محدودة ، بينما الأشياء التى تستثير عناية البشر كثيرة . فعلى الإنسان إذن أن يضيف وأن يطلق الأسماء ، حتى يستطيع أن يسحب قاعدة واحدة على عدد لا يحصى من الأمثلة الفردية ، ولما كانت طريقته الوحيدة إلى ذلك هى استخدام الأسماء ، فإنه قد يخدع نفسه ويحسب أنه قد فهم الشىء إذا استطاع أن يطلق عليه اسمًا من الأسماء .

فلا عجب إذن أن يؤخذ الاسم على أنه الحقيقة ، ونجد فى المناهج الفلسفية القديمة ـ شرقًا أو غربًا ـ تمجيدًا كبيرًا لقوة اللفظ ، ودعوة قوية إلى اعتبار اللغة هى الحقيقة ذاتها ، وبمرور الزمن اكتشف الناس أن قيمة الألفاظ إنما هى قيمة وسيلية ، غير أن قوة الأسماء لا يمكن هزها بهذه السهولة ، وإذا أردنا دليلاً على ذلك ، فما علينا إلا الإشارة إلى الشعارات التى لم تزل تسيطر على المواقف والتصرفات البشرية .

ولقد أدى نمو المجتمعات القديمة ـ منعزلاً بعضها عن بعض ـ إلى استمرار بقاء الأكذوبة الاسمية ، فصعوبة المواصلات قد جعلت المجتمعات فى شتى الأقاليم ، لا تشعر غالبًا بوجود المجتمعات الأخرى. وبفضل انعدام الاتصال أمكن أن تتعايش مراحل مختلفة من الحضارة ، وأنواع مختلفة من الفلسفات ، وكان من الطبيعى أيضًا أن صارت هذه النظرات تنسب إلى الاقليم الذى ازدهرت فيه ، وبمجرد أن تنسب نظرة من النظرات أو موقف من المواقف إلى منطقة جغرافية بذاتها ، فإنه لا تبقى إلا خطوة ثم تصير هى واسم الإقليم بمعنى واحد .

●● ●● ●●

٣.

على وجه العموم يمكننا إذن أن نقول أنه لا يوجد للإنسان مفهوم شرقى أو مفهوم غربى متميز ، ونحن نصل إلى نفس النتيجة إذا تدبرنا التقاليد الفلسفية التى تعتبر من مميزات الشرق أو الغرب ، كثيرًا ما يقال إن الفيلسوف الشرقى يميل إلى إعطاء أهمية كبرى للإلهام من حيث هو مصدر من مصادر المعرفة ، بينما الفيلسوف الغربى أميل إلى إخضاع كل المعرفة للعقل والتجريب ، ولا توجد مدرسة هندية فلسفية ـ سواء أكانت فلسفية أم خارجة عن سنة السلف ـ تقبل نظرية لا تثبت للمنطق ، وكثير من أعظم رجال الفلسفة الغربية مثل «أفلاطون» و «كانت» ، يعطون للإلهام أهمية كبرى فى مذاهبهم الفلسفية ، ويقال أيضًا : إن الفيلسوف الغربى أكثر عناية بالتفكير فى الحقيقة ، بينما الفيلسوف الشرقى أكثر عناية بإدراك الحقيقة ، وقد يكون هذا حقًا فى بعض الحالات ، لكن يوجد أيضًا فلاسفة شرقيون تنصرف جل عنايتهم إلى التفكير فى الحقيقة، كما يوجد فلاسفة غربيون يعتبرون المعرفة مجرد وسيلة لإدراك الحقيقة ، وكذلك إذا كان هناك فلاسفة شرقيون يرون أن المعرفة العليا تسمو على التعبير اللفظى ، والنقل إلى الآخرين ، فهناك أيضًا فلاسفة غربيون مثل «ولنجشتين» Welingestien يعتبرون أن المعرفة الحقة شىء لا يمكن التعبير عنه .

وكذلك نجد أن مدى السيطرة على قوى الطبيعة ، قد أثر فى نظرة

الإنسان فى شتى الأقطار أو العصور ، ففى كل المجتمعات البدائية ، يخضع الإنسان لقوى لا يستطيع فهمها أو السيطرة عليها . مثل هذه المجتمعات تميل إلى اعتبار الإنسان ألعوبة فى يد القدر ، ونجد فى المجتمعات الزراعية بعض الزيادة فى سيطرة الإنسان على الطبيعة ، مما يؤدى إلى تزايد الإحساس بأهمية الإنسان ، ولولا فن الرى لكان الإنسان الزراعى لم يزل تحت رحمة تقلبات الجو ، وهكذا كان الاستسلام للقدر عنصرًا هامًا من عناصر عقل الإنسان . ومع تقدم العلم تزداد سلطته على طبيعته ، وتتزايد ثقته بنفسه . إنه لم يعد يقنع بأن يكون فريسة للقدر ، بل يحاول أن يصير مسيطرًا على مصيره ، ويَحْدُث تغيير يماثل هذا فى موقفه العقلى ، ويرجع هذا إلى تغير فى حالته المعرفية ، لكنه مع مضى الزمن ينظر إلى ذلك على أنه خصيصة ذاتية من خصائص المجتمع الذى ينتمى إليه .

بل إن سخط الإنسان على الأشياء كما هى ، يختلف باختلاف درجة سيطرته على الطبيعة ومدى هذه السيطرة ، ذلك أنه مدفوع بالرغبة فى التقدم ، فيحاول دائمًا أن يكون فى حال خير من حالته الراهنة ، وحين كانت سيطرته على العالم محدودة ، وفهمه لأسرار الطبيعة ضعيفًا ، كان سخطه كثيرًا ما يجد تعبيرًا عنه فى حالة التشاؤم الفلسفى ، فالأنبياء وحكماء الهند على السواء قد تكلموا عن عدم دوام الحياة ، وعدم خلود المجد والأبهة الأرضيين ، وبتقدم المعرفة العلمية ، وجد السخط مظهرًا آخر له بين الفلاسفة والعلماء فى عصر النهضة الأوروبية ، فعدم رضاهم عن العالم القائم قد أدى إلى محاولة الوصول إلى أعمق أسرار الطبيعة وتشكيل العالم على النحو الذى يحبون .

وقد أدت تلك المحاولة للسيطرة على الطبيعة إلى انطلاق طاقات خفية ، مكنت الأوروبيين الغربيين من أن يسيطروا على العالم لمدة تزيد عن القرنين ، ولم تقتصر هذه السيطرة على الميدان السياسى ، بل امتدت كذلك إلى الميادين التى نصفها عمومًا باسم الميادين الروحية ، إن روح المغامرة والابتكار فى أوروبا ، وإيمانها بالعقل البشرى ، وبحثها عن الحق، ومحاولتها تخفيف الآلام حيثما كانت ، كل هذا يعتمد على القوة التى يمنحها التفوق فى المعرفة ، وهذه الانتصارات تراث مجيد للبشر كافة، فإذا حدث فى الآونة الأخيرة أن تمرد الناس ضد القيادة الأوروبية، فإنما يرجع هذا إلى ميل الأوروبيين إلى جعل التفوق فى المعرفة أساسًا للسيطرة السياسية والتمييز العنصرى .

وينبغى لنا مع ذلك أن نشير إلى أن الثورة ذاتها هى إلى حد كبير نتيجة لعمل بعض من ذوى النفوس الصافية ، والأرواح السامية بين الشعوب الأوروبية .

ونحن لا نجد إلا فى القرون الأخيرة ذلك الاختلاف فى النظرة والمزاج والطاقة البشرية بين أهل أوروبا وفى غيرهم ، ولا يوجد مبرر لأن نستنتج من ذلك وجود اختلافات أساسية بين الشرق والغرب ، لقد دالت الدول غير الأوروبية بسبب اعتمادها على الزراعة ، وبسبب نقص معارفها العلمية وفنونها التكنولوجية ، غير أن انتشار المعرفة العلمية يميل إلى محو هذه الفروق وغيرها ، والأقاليم التى كانت منعزلة وسارت على منهج يختلف عن هذا المنهج ، قد اتصل بعضها ببعض الآن فى المكان والزمان ، وأدى هذا إلى التقارب الذى يحمل فى طياته احتمال الصدام، إن لم تقل الكوارث ، إلا إذا أزيلت الفروق الصارخة بين الأفراد

والمجتمعات ، عن طريق إيجاد نظرة مشتركة ومقاييس مشتركة .

ولقد وجدت الظروف المادية اللازمة لإحداث مثل هذا التطور، ففى الماضى كانت معرفة الإنسان بالعالم محدودة ، وكانت محاولات إقامة الوحدة محدودة أيضًا فى طبيعتها ومجالها ، فكانت الوحدة فى العادة تقوم بين الأقاليم المتجاورة ، وتقتصر على أفراد الطبقة الممتازة ، الذين كانوا يجدون أساسًا مشتركًا للتعاون فى الميادين الثقافية والتعاونية ، أما اليوم فالتعاون يجب أن يكون بين كل الناس فى كل الأقاليم ، ففى منتصف القرن التاسع عشر كان العالم الجغرافى كله قد أصبح معروفًا ، وأدت الانتصارات العلمية إلى أن صار الناس بعضهم لبعض جارًا ، وإن تناءت الأقطار .

وهكذا أقيمت العلاقات السياسية والاقتصادية بين الشعوب التى لا تدرك أن بينها أواصر مشتركة ، وفى نفس الوقت ، وضع العلم فى أيدى الناس قوة تستطيع أن تدمر العالم إذا أسيء استخدامها ، وتزايد القوة ، مع تزايد نمو الوحدة فى العالم ، يجعل عمل الإنسان وآثار هذا العمل شيئًا عالميًا حقًا ، والوحدة ، لكى تكون فعالة ، يجب ألا تكون عالمية شاملة ، فالعالم الحديث إما أن تزدهر أرجاوه معًا ، أو تفنى معًا .

لقد توحد العالم تكنولوجيًا ، وصناعيًا ، واقتصاديًا ، عن طريق الاكتشافات العلمية ، لكن من النواحى النفسية ، والعاطفية ، والسياسية لم يصل الإنسان بعد إلى مرحلة الوحدة ، إنه من الناحية العقلية يدرك أنه لا يستطيع إيذاء غيره دون أن يعود هذا بالأذى على نفسه ، وأنه إذ يصنع المعروف فى الآخرين ، فإنما يصنع معروفًا فى نفسه ، غير أن الإدراك العقلى لم يصحبه تغيير مشابه فى أساليب السلوك ، فلم يزل

الإنسان يحارب إخوانه باسم العقل البشرى والخير الاجتماعى .

وهذا التناقض راجع إلى أن معرفته بالعالم الخارجى تزيد عن معرفته بنفسيته ، فالعواطف تجتاح نفسه دون أن يستطيع لها فهمًا ، وهو فى صحبة زملائه غالبًا ما يتصرف على نحو لم يكن يخطر له على بال لتصرف وحده ، والهيستيريا الجماعية التى تجتاحه تكشف فى طبيعته عن إمكانية للشر لم يكن يعرف عنها شيئًا من قبل ، لم يكن يدرك على الإطلاق وجود تلك الأغوار المجهولة فى طبيعة الإنسان ، التى لا يستطيع الإنسان تجاهلها إلا بتعريض ذاته للخطر .

لقد كان القرن التاسع عشر هو عصر العقلية المحاربة ، فانتصارات العلم أدت بالناس إلى الاعتقاد بأن تربية العقل ستؤدى إلى تغيير فى القلب ، وتتيح لكل الناس أن يلتقوا على صعيد عقلى مشترك ، ولم يتحقق هذا الأمل ، فقد بعث فى بعض الناس إحساسًا غريبًا بالعجز ، وشعورًا بالإيمان بالقدر ، يعتبر من بقايا الأيام التى لم يكن للإنسان فيها سيطرة على قوى الطبيعة ، وكان تزايد المعرفة بالطبيعة الخارجية من العوامل التى ساعدت الإنسان على الانتصار على إيمانه بالقدر ، وقد يمكن القول بأن تزايد المعرفة بالحقائق النفسية للإنسان ، سيعينه على الانتصار على إيمان العصر الحديث بالقدر .

●● ●● ●●

ـ٤ـ

إن التربية تحاول أن تعرف الفرد بنفسه وإخوانه وبيئته ، وهكذا تكون المعرفة بالعالم الداخلى للإنسان ، وعالمه الخارجى وظيفة من وظائف التربية ، ولما كان الإنسان لا يستطيع العيش بمفرده ، كانت أهداف نظم التربية فى الشرق أو فى الغرب هى مساعدة الأفراد على أن يكونوا أعضاء صالحين فى المجتمع ، ولهذا تغيرت نظم التربية باختلاف النظام الاجتماعى ، وتغاير ما يهتم به من نواحى الطبيعة البشرية .

وهذه التغيرات التى كانت أول الأمر مجرد تفاوت فى درجة الاهتمام، قد أدت مع مرور الزمن إلى الإهمال التام لبعض العناصر الحيوية فى طبيعة الإنسان . وهذا مثل واحد من الأمثلة : فى الهند القديمة حاولت التربية تحقيق الأهداف الرباعية لإله الحب Kama والحياة الدنيوية Artha والقانون الخلقى Dharma والخلاص أو التوبة Moksha .

وطالما كان المجتمع الهندى سليمًا قويًا كان لكل من الأهداف أهميته الواجبة ، فلما تدهورت قوة الأمة تغير مركز العناية ، وبالتدرج سيطرت على المجتمع روح التقشف ، وهى تحاول تمجيد الروح على حساب الانتصارات فى الشؤون المادية الدنيوية ، فلما تغيرت النظرة الاجتماعية تغير كذلك طابع التربية الهندية ، فانتقل الاهتمام من الحياة النشيطة إلى الحياة التأملية ، وصار الاتساق مع التقاليد ، وتمجيد السلطة ، أسمى من الاستطلاع العقلى والاستدلال فى النظرة . فقد مجد الخنوع والرضا على

أنهما من القيم الروحية .

ومن النتائج العجيبة لهذه الروحانية المزعومة ، الميل إلى الانطواء على النفس ، والكف عن كل مظاهر النشاط الخارجى . وبعد هذا رأينا التربية الهندية تميل إلى تمجيد التدريب العقلى ، بل ربما قلنا «الذاكرة» فحسب ، وذلك على حساب الخصائص البشرية الأخرى ، وتركيز الاهتمام فى الناحية العقلية ، أدى إلى عدم الاكتراث بالعمل اليدوى إن لم نقل احتقاره .

وإذا نظرنا إلى ما جرى فى أوروبا ، وجدنا مثلاً مناقضًا للمثل السابق ، يبين لنا أيضًا كيف أن المبالغة فى الاهتمام بأحد العناصر تؤدى إلى النظر غير السليم إلى التربية ، لقد كان أفلاطون يعتقد أن التربية ينبغى أن تؤدى إلى نمو متوازن للعقل والجسم ، وكان يهتم اهتمامًا متساويًا بالرياضيات والألعاب الرياضية ، باعتبارها وسائل تربوية ، وهذا الهدف لم يتحره أحد عن عمد ، لكن بمضى الزمن انتقل الاهتمام إلى تنمية العقل ، وقد أدت الانتصارات المذهلة التى أحرزها العلم منذ بداية عصر النهضة ، إلى تشجيع أوروبا على أن تطبق أساليب البحث العلمى على المشكلات الشخصية الإنسانية ، دون تحر لصلاحية تطبيق هذه الأساليب فى كل الأحوال . وجوهر الطريقة العلمية هو عدم الاكتراث للجزئيات ، وجوهر الشخصية هو توكيد التميز الفردى .

ولقد ظهرت نظرية فى التربية متأثرة بالعلم ، فحاولت أن تعامل الفرد على أنه مثال لقانون أو وحدة فى سلسلة متلاحقة متشابهة المواصفات ، ونظرت إلى المجتمع البشرى على أنه مجموعة من الوحدات ، وحاولت تفسير العلاقات الاجتماعية على غرار ما يجرى فى

علم الطبيعة ، فظن بعضهم أن الأفراد وعلاقاتهم التعاقدية أشبه بالذرات وعلاقتها التجاذبية ، ومن هنا استنتجوا أن التنافس هو المبدأ الذى يسود التقدم الاجتماعى ، وأنه إذا عمل كل فرد على تحقيق غاياته الخاصة ، فإن غايات المجتمع تتحقق من تلقاء ذاتها ، وكان الخير العام يعتبر النتيجة المترتبة على سعى الأفراد وراء المصلحة الخاصة المستنيرة .

وبينما يهدف العلم إلى إقامة قوانين عامة ، فقد بذلت المحاولات لأن تكون هذه القوانين مقامة على أساس التجربة المادية . ولقد تأثرت التربية فى أوروبا بكل من الدافع العقلى والاتجاه العملى للعلم ، أما الدافع العقلى فقد عبر عن نفسه بالاهتمام بالفكر المجرد ، وأما الاتجاه العملى فيتجلى فى بذل الجهود المستمرة لتحسين الظروف المادية للحياة ، وهذا العنصر الإنسانى فى المفهوم الأوروبى للتربية قد أيده وقواه نمو العلوم البيولوجية ، ونتيجة لهذه التطورات ، حل بالتدريج مفهوم المجتمع من حيث هو كائن عضوى ، محل نظريات العقد الاجتماعى .

وإدراك الطابع العضوى للمجتمع لم يكن له مع ذلك أثر مباشر على مبادىء التربية أو وسائلها ، وحتى فى يومنا هذا لا يدرك تمام الإدراك أن التعاون كان عاملاً قويًا كقوة المنافسة فى صراع الإنسان من أجل البقاء ، ذلك أن المفهوم العضوى للمجتمع قد أدى إلى حدوث تغيير فى مفهومنا للفرد ، وأعاننا على أن نقدر ما فيه من تعقيد لا نهاية له ، لهذا يتزايد الاعتراف بأن التربية التى تهدف إلى تنمية الشخصية يجب أن تتيح له إظهار ما فى عقله ، بل وما فى مشاعره وخياله .

●● ●● ●●

٥

فنحن لذلك بحاجة إلى تنظيم جديد للتربية يحقق حاجات البشر في مجموعهم من جهة ، وحاجات الأفراد من جهة أخرى ، ولا يعنى هذا توحيد وسائل التربية ومقاييسها عند الجميع ، بل يعنى أن تكون بينها أوجه شبه ، فلقد أثبت تطبيق الكشوف العلمية والأساليب الصناعية الحديثة في ميادين الإنتاج إلى أن رخاء الأمم يعتمد على حالتها المعرفية، كما أن هذا التطبيق أوجد ظروفًا تجعل طيبات الحياة فى متناول الجميع ، فاستخدم الآلة محل اليد العاملة ، يستطيع أن يزيل من الحياة كثيرًا مما يشوبها من كدح ومشقة ، ويستطيع العالم اليوم أن يتوقع تحقيق اقتصاد يحقق الرخاء والوفرة بدلاً من اقتصاد العوز الذى ساد حتى الآن ، وكما أن الفرد الغنى لا يصادق الفرد الفقير ، فكذلك الشأن بين الأمم ، لهذا كان التقارب فى مستويات الرخاء بين شتى الأمم شرطًا من شروط تحقيق التفاهم الدولى ، ومفتاح هذا الرخاء هو التقارب بين المستويات التربوية.

إن ازدحام العالم ، نتيجة للتقدم التكنولوجى يتطلب تقاربًا أعظم بين أهداف التربية ووسائلها ، غير أن هذا التقارب يجب ألا يكون على حساب ما بين الأفراد ، من تغاير واختلاف فى الاحتياجات ، ولقد أشبعنا فى داخل نطاق نظم التعليم القومية حاجة النشىء إلى تقديم برامج شديدة التنوع بحيث تلائم أذواق كل طالب وكفايته ، وكذلك يجب إيجاد مجال للتغاير بين شتى النظم التعليمية فى مختلف الأمم .

وإذا كان التقدم العلمى يميل إلى تضييق الفوارق الاقتصادية والسياسية بين الشعوب ، فإنه يشجع على توسيع هذه الفروق فى الميدان الثقافى ، وذلك عن طريق تحرير قوى وطاقات ، كانت تستفيد فى مجرد المحافظة على البقاء ، وكلما تزايد ما لدى الإنسان من ضرورات البقاء ، تنوع ذوقه واهتماماته .

لهذا فالتقدم العلمى لا يستتبع توحيد المواصفات الثقافية بين الناس ، ولا يتطلب استعمارًا ثقافيًا . وكل ما نحتاجه وينبغى أن نسعى إليه هو أن نتأكد من أن كل القيم التى حققها الإنسان فى خلال تاريخه الطويل قريبة المنال للجميع .

إن دروس التاريخ تؤكد لنا أن التربية لكى تحدث أثرها الكامل ، يجب أن تتناول الإنسان كله ، يجب أن تتيح المجال لتنمية جسمه وعقله وفكره ومخيلته ، فى وقت واحد ، وفى توازن سليم ، وهذا ما حاوله المصلحون من رجال التربية خلال المائة عام الأخيرة أو ما يزيد عنها ، ولقد أكد كثير من رجال التربية الغربيين أهمية النشاط من حيث هو عنصر تدريب الأطفال ، فالنظريات التى كانت تعتبر التربية مجرد حشو الأدمغة بالمعلومات ، قد أفسحت المجال لنظرية جديدة فى التربية فحواها أن التربية عملية إيجابية تستخرج من الفرد خير ما عنده ، ومن خمسين سنة قال طاغور : إن التربية الحقة يجب أن تتيح للطفل حرية النمو ، طبقًا لطبيعته . وكذلك حاول غاندى أن يجعل لنشاط الطفل غاية نافعة من الناحية الاجتماعية ، وكل هذه التجارب ـ شرقية وغربية ـ تؤكد أن التربية ليست نظامًا عقليًا بحتًا ، بل يجب أن تكون نظامًا للإنسان بأكلمه .

وكانت التربية فيما مضى ـ تتجاهل أحيانًا العلاقة بين الفرد والمجتمع وهذا جعل التعليم يعتمد على المعانى المجردة ، لا على الحقائق الواقعة. وكذلك فشل فى استثارة اهتمام الصبى ، فالصبى أقدر على فهم الموقف المادى ، لأن هذا الموقف يستثير وجدانه وخياله وفكره ، أما المعانى المجردة ، فلا حيلة للطفل معها إلا أن يعول على ذاكرته الصماء ، وهذا هو السبب فى أن التجارب التربوية الحديثة فى الغرب ، وتجارب طاغور، وغاندى فى الهند ، تؤيد كل هذا الاهتمام بالنشاط والإيجابية من جانب الطفل .

إن التعليم عن طريق العلم يبتعث اهتمام الطفل ، ويجعله يدرك نتيجة ما يفعله .

والمجتمع بطبيعته لابد من أن يقوم على خدمته أفراد مختلفون ، لهم قدرات ووظائف متنوعة . ويؤدى الاهتمام بالطابع الاجتماعى بالتربية إلى ما يأتى :

أ ـ المساعدة على تنمية روح التعاون .

ب ـ الاعتراف بأن الاختلاف فى الوظيفة لا يمكن أن يقابله اختلاف فى القيمة والأهمية .

جـ ـ تخفيف حدة التمييز الصارم بين التربية والعقلية واليدوية .

ولقد كان التعليم الفنى فى وقت من الأوقات يعتبر حرفة من الحرف، أو على أحسن تقدير حذق صناعة ما ، أما اليوم فقد اعترف بالتربية الفنية على أنها التربية بأكمل معانيها ، بشرط الاهتمام بالناحية الاجتماعية للحرفة . وهذا التصور الجديد للتربية يترتب عليه فى بلاد

كالهند رد الاعتبار إلى قيمة العمل .

والتربية الحديثة يجب أيضًا أن تهتم ، أكثر من أى وقت مضى ، بالعلاقات بين المجتمعات المختلفة وبين المجتمع البشرى الأكبر ، إذ لم يحدث من قبل أن تقاربت الشقة بين الناس كما فعلت الآن ، فاليوم لا يكاد يحدث أى شىء فى أية بقعة من بقاع الأرض دون أن يؤثر فى الحال فى كل مكان . ولا تستطيع أمة أن تتجاهل ما يحدث خارج حدودها ، دون أن تعرض نفسها للخطر . لقد انتهى اليوم الذى كان يستطيع فيه مجتمع من المجتمعات أو شعب من الشعوب أن ينطوى على نفسه داخل حدوده ، ويعكف على شؤونه وحدها ، لهذا فالتربية فى كل أنحاء العالم ، يجب أن تزيد من عنايتها بالشؤون العالمية .

إن على الرجال والنساء فى أى قطر من الأقطار أن يحاولوا معرفة مشكلات زملائهم فى الأقطار الأخرى وفهمها ، والخطوة الأولى فى هذا الاتجاه هى إزالة سوء الفهم ، ومن مصادر سوء الفهم : فساد النظرة إلى شتى العناصر البشرية لمعنى الجنس ، ويخبرنا علماء الإنسان أنه لا توجد فروق نظرية بين العناصر والأجناس ، بل إن كثيرًا من هؤلاء العلماء يعتبرون كلمة العنصر أسطورة من الأساطير ، غير أن كل علماء الإنسان يجتمعون على أن كل الاختلافات التى ظهرت خلال فترات طويلة من الزمن نتيجة لتغير المقتضيات فى شتى المواقف، قد أدت إلى ظهور عناصر مختلفة . وينتج عن هذا أمران : أولهما : أن الاختلافات المميزة ليست مطلقة ولا ثابتة ، بل إن تغييرها ممكن ، وهى تتغير بالفعل ، ومن جهة أخرى ، فإن أية محاولة لإنكارها أو قمعها بغتة دون تمهيد ، أمر تترتب عليه أخطار جسيمة .

وثمة مصدر آخر لسوء الفهم ، هو : تدريس التاريخ والجغرافيا على نحو معيب مشوب ، فحتى الآن تُدرس هاتان المادتان عمومًا من وجهة نظر قومية ضيقة ، فالتاريخ غالبًا ما يعنى تمجيد الوطن ، والجغرافيا تميل إلى اعتبار الوطن مركز العالم ، وغالبًا ما يصحب ذلك تقليل من شأن الشعوب والأقطار الأخرى ، وإذا أردنا اجتناب الخطر الكامن فى هذا النهج من السلوك ، وجب علينا أن نصحح فى أذهاننا مفهوم التاريخ والجغرافيا ، فالتاريخ يجب ألا يعنى بعد اليوم مجرد الإلمام بالعلاقات السياسية بين مختلف الشعوب ، فهذه العلاقات ـ على أية حال ـ مليئة بأخبار الصراع والقتال ، ويجب علينا أن ندرك ما يفوق فى أهميته قصة الحروب ، وهو قصة التعاون الطويل الواسع الجنبات ، الذى كان له الفضل فى بلوغ الإنسان ما بلغ . إن أحدًا من الناس لا يعرف من الذى اكتشف النار ، ولكن استخدامها من الحقائق الأساسية فى حياة البشر . وكذلك لا تعرف أسماء من اكتشفوا الورق والطباعة ، ولكن نتائج الاكتشاف ملك شائع بين بنى الإنسان . إننا لا نعرف الفرد أو الشعب الذى كان أول من اكتشف فن الزراعة أو الملاحة أو النقل ، لكن من ينكر أن هذه الكشوف كان لها تأثير فى الحياة البشريه يفوق تأثير أروع الانتصارات الحربية التى أحرزها أشجع الملوك .

إن « أناتول فرانس » فى إحدى روائعه القصصية يخبرنا كيف أن «بيلاطس البنطى» Pontius Pilate كان يستعيد كثيرًا من ذكرياته العزيزة حين كان حاكمًا لجوديا ، لكنه نسى اسم المسيح ، ولم يذكر عنه إلا أنه شخص جامح الخيال ، مغمور ، صلب لتهدئة خواطر اليهود المتزمتين .

وقد يكون فى ذلك شىء من المبالغة ، لكن هل ننكر أننا عادة لا

نهتم الاهتمام الواجب بانتصارات السلام . إن هناك آلاف الكشوف المتعمدة أو الاعتباطية التى وصل إليها فرد أو مجموعة من الناس ، فأفاء الخصب والثروة على التراث البشرى ، ثم لم يجد ذكرًا له فى تاريخ الإنسان ، ذلك أن أى كشف يهتدى إليه واحد من الناس لا يلبث أن يصير بمرور الزمن ملكًا لكافة العقول ، ولا تبتكر فى الصناعة تكنولوجية جديدة حتى يتحسن الإنتاج كمًا وكيفًا فى كل أنحاء العالم ، هذه الانتصارات والاكتشافات هى القصة الحقة لتعاون الإنسان مع بنى جنسه، ويجب أن تتكون منها المادة الأساسية للتاريخ .

إن معرفتنا بطبيعة الإنسان لم تزل غير كافية ، لكننا رأينًا مرارًا كيف تؤثر الافكار فى الناس وتشكل مجرى التاريخ ، ومشكلة التربية فى العالم الحديث هى أن تُنمى فى الناس مواقف تؤدى بهم إلى العمل للصالح العام ، ولن يعقلوا ذلك ، بل لن يستطيعوه ، ما لم يستشعروا الأمن فى قلوبهم . ولا يمكن إيجاد مجتمع متماسك دون إيجاد أفراد متماسكين ، ولا يمكن أن يتحقق السلم للعالم بدون وجود مجتمعات متماسكة ، فالتماسك الفردى والاجتماعى يعتمد على الاشتراك فى الهدف ، وعن طريق التربية وحدها ، تستطيع هذه الأهداف أن تكون جزءًا من الكيان العقلى لكل الناس .

وحتى فى المجتمع المتناسق المترابط يختلف الأفراد بعضهم عن بعض اختلافًا كبيرًا ، غير أن هذه الاختلافات لا تؤدى إلى الصراع ، نظرًا لوجود قيم خاصة يشترك فيها كل أفراد المجموعة ، وعلى المجتمعات أن تستحدث قدرًا من القيم والأهداف المشتركة ، ولا يمكن تباينها إلا فى عبارات عامة جدًا ، ويجب أن تشمل فيما تشمل ما يأتى :

(أ) سلامة الصحة البدنية للجميع .

(ب) الكفاية الاقتصادية التى تكفل ظروف البقاء للجميع .

(ج) التحرر من السيطرة فى الشؤون الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية .

(د) حرية كل فرد فى أن ينمو إلى أقصى حد نتيجة طاقته ، دون افتئات على حقوق الإنسان .

ولما كانت أفكار الناس واستعداداتهم ليست شيئًا جامدًا يستعصى على التطور ، فإنه يمكن تعديلها عن طريق التربية الصحيحة ، لهذا تستطيع التربية إيجاد الظروف الملائمة للتعاون بين الثقافات الشائعة فى العالم ، وأن تكون أداة لهذا التعاون ، وفضلاً عن ذلك فإن التربية فى العالم الحديث يجب أن تكون أداة لتحقيق التقدم دون عنف ، ولا يوجد مجتمع إلا وهو فى حالة تغيير مستمر وتؤدى الأحداث الخارجية والعمليات الداخلية باستمرار إلى تعديل طابع الأفراد وتركيبهم ، وكذلك تفعل بالمجتمعات ، وتستطيع أن تقيس حيوية الفرد أو المجتمع عن طريق قياس قدرته على الاستجابة للبواعث الخارجية والداخلية ، إن الحياة فى تغير مستمر ، ومع ذلك فإن التغير المفاجئ قد يؤدى إلى انفصام الوحدة. ولا يقال فى هذه الحالات إن الأفراد والمجتمعات تتغير ، بل يقال : إنها تتحلل .

إن وظيفة التربية هى إيجاد موقف ييسر التقدم ، دون حاجة إلى ثروات عنيفة ، أو انقلابات مفاجئة ، ففى الماضى كان تراث الإنسان يتحدد غالبًا بما امتلكه آباؤه وأجداده الشخصيون ، أما اليوم فإن وحدة

العالم قد جعلته وارثًا لكل ما مر بالإنسان فى كل زمان ومكان ، إنه الآن قادر على أن يستعرض نشأة المجتمعات وسقوطها خلال قرون ، ويتعلم من التاريخ أن حسن التقبل للتعديل هو الشرط اللازم ، لا للتقدم فحسب، بل ولمجرد البقاء ، فالتربية فى العالم الحديث ، يجب إذن أن تثبت فى الإنسان روح التسامح والطواعية للتطور : التسامح الذى يسعى إلى إدماج قيم كل الحضارات فى صورة تراث بشرى عام ، والطواعية للتطور التى تعين الإنسان على مواجهة كل موقف جديد باستجابة جديدة بناءة .

●● ●● ●●